الحمد لله الذي تفرَّد بالبقـــاء والدَّوام ، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدهُ لا شريك لـــهُ الملـــك القدوسُ السلامُ ، وأشهدُ أنَّ رحمته للعالمين محمداً عبدُهُ ورسولهُ المبعـــوثُ بشرعةِ الـــسلامةِ والإسلامِ ، صلواتُ الله وسلامهُ عليه وعلى آل بيته وصحابته والتابعينَ عدد سجعِ الحمـــــام ودمعِ الغمـــام وتفتُّـــقِ الأكمامِ.

أمَّـــا بعدُ عباد الله فأوصيكم ونفسي بتقوى الله فهي العُـــدَّةُ الباقيةُ عند حلـــول المـــوتِ ، والذخيرةُ الواقيةُ من الحسرةِ على الفوتِ ، قال الله تعالى (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) ، عباد الله: (النَّـــاسُ أقواتُ هذا الموتِ يأكلُـــهم ** جيلاً فجيلاً إلى أن لا تـــرى جِـــيلاَ) ، الموتُ عباد الله: إنَّ الموتَ سِـــرٌّ من أسرارِ الضَّـــعفِ والعجْـــزِ المضروبَـــينِ على كلِّ مخلوقٍ فكلٌّ من عليها فانٍ ويبقى وجهُ ربكَ ذو الجلالِ والإكرام ، المـــوت لا يكـــــادُ يتذاكرهُ المتجالسونَ أو يتأمَّـــلهُ المتقونَ إلا اقشعرَّت الجلود واهتزَّت الضمائرُ وظهرت أيـــامُ المرْءِ الخاليةُ شاخصةً أمامَ عينيه يعاينُ ما طواها عليه من التقصير ، ليعقدَ عزمهُ على توبةٍ تمحو ما سلفَ ويحسُـــنُ بها المصير ، أمَّـــا من طبعَ اللهُ على قلبه واستحكمت الغفلةُ من أمِّ لبهِ فلن يفيقَ حتى تدهمه والغافلينَ مناياهم بغتةً فلا يستطيعونَ ردَّها ولا هم يُنظَرون ، والأمواتُ وإن اتَّـــحدت مصائرُهم إلى القبور ، إلا أنَّ المصيبةَ بهم ليست واحدةً ، فمنهم من يكونُ موتـــهُ فتحاً مبيناً ويومَها يفرحُ فاقِـــدوهُ بنصر الله الذي أراح منهُ وكفاهم شرَّهُ ، ومنهم من يمـــوتُ ويكُـــونُ موتهُ مُصَـــاباً جلَلاً يكلمُ قلوبَ المسلمين ويستدرُّ دموع المؤمنين ويكـــوي أفئـــدةَ الأقربينَ والأبعدينَ ، وليست هذه الآخِـــرةُ إلا لعلمـــاء الأمَّـــةِ العاملينَ الراسخينَ الـــذين يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ، فلا يطلبونَ وراءَ الله أحداً ، ولا يجدونَ من دونـــــهِ مُلتحَـــداً ، والمصيبة بمثل أولئك الكرامِ البررةِ لا تقلُّ خطراً عن الكوارثِ الكونية التي تعمُّ بالضرر أصقاعَ الدنيا ، والشاهدُ على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلمَ القائلُ فيما صحَّ عنهُ (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ..) وزوالُ العلـــمِ زوالٌ لصالحِ العمَلِ وإيذانٌ بكثرة الخبَثِ وتكاثر الأشرار الذين على أعقابهم تقومُ الساعةُ ، وإنَّ من آخرِ شواهدِ هذا الرفعِ للعلمِ ما كانَ بلاءً راصداً وسهماً قاصداً أصابَ الأمَّـــةَ في مقاتلَ عدةٍ و رماها على تمكينٍ وحدةٍ ذلكم هو موتُ سماحة الشيخِ العلامة عبد الله بن عبـــد الـــرحمن الغدَيَّـــان قدَّس الله روحهُ ورضي عنهُ وأرضاهُ ورفع درجاته في المهديينَ وألحقهُ بالـــصالحينَ ، وكأنِّي بأمَّـــة الإسلام لو تجسدت ناطقةً لتمثلت قول العربي: (فمن لي بالبقاء وكُـــلُّ يومٍ **

لسهمِ الموتِ في كبدي جِـــراحُ) ، فإنَّـــا لله وإنا إليه راجعون، ونسأل الله أن يأجُر المصابين به في مصيبتهم ويُخلف لهم خيراً.

وإنَّ التأمُّـــلَ في بعضِ جوانبِ حياةِ هذا العلَـــمِ الشَّـــامخِ تورثُ السامعَ إحـــساساً بـــالعزَّةَ والمتكلِّـــمَ استمداداً للقوَّةِ والخاملَ أملاً في الانبعاثِ والنُّشور ، فالدنيا بغيرِ العُلماءِ وأخبارهم جمودٌ وهمودٌ بل هي وادٍ غيرُ ذي زرع حتى تُمطِر عليه سحائبُ أنبائهم ، والله تعالى أمر الأنبياءَ بسلوك سبيل العالمينَ فكيف بمن هو دون الأنبياء قال الله تعالى لموسى وهارونَ (فاسْتَقيما وَلَـــا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فأوَّلُ الاستقامةُ صحبةُ وملازمةُ ومطالعةُ أخبار العُلماء ، ولـــذا كانَ من عادة أهل العلمِ شحذُ هممهم بأخبار الماضينَ من الأئمَّـــة رجاءَ كشفِ ما يقعُ مـــن الخمول والغُمَّـــة ، قاصدينَ بذكر السير والشمائل نسبة الفضل لأهله من غـــير اعتقـــــاد العصمة والكمال إلا لمن عصمهُ الله من الأنبياء والرسل.

لقد كانَ الشيخُ رحمه الله تعالى وقدسَ روحهُ من أضبطِ النَّـــاسِ للعلمِ وأحفظهم له ، ومـــن أرجحِ العلماءِ كفَّـــةً في ميزانِ النفعِ والتعليم والإصلاحِ وبسطِ اليدِ واللسانِ والقلم بالنصيحة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامَّتهم ، أمضى قريباً من أربعة عُقـــودٍ عضوا في هيئـــة كبـــار العلماءِ يفتي ويوجهُ وينصحُ ويُشيرُ ويقوِّمُ ويُسدِّد ، عفُّ اللســـانِ طيبُ المعشرِ ليِّـــنٌ هيِّـــنٌ ، خافضُ الجناحِ لكل قاصدٍ ومُريد ، حتى إذا أريدَ على ما يكرهُ استشاطَ شهاباً حارقاً يقذفُ البطالينَ من كل جانبٍ غيرةً على دين الله ، بلغ التسعينَ من عمرهِ وهو يُحمِّلها ما أعياها من معالي الأمور ومدارج السعود (تسعونَ لو صعدت كواهلَ شامخٍ ** لتدكـــدكت هـــضباتُه إعياءا) لم تبهرهُ إشعاعاتُ المناصب ولم تأسرهُ قِلاعُ الألقابِ والمُسَمِّيـــات ، ولم يعـــرفْ إليـــهُ العجبُ والاعتدادُ بالنفسِ طريقاً ، فعلى ما قدرِ ما استودعهُ الله من الفقهِ والعلمِ وبُعدِ النَّظَـــرِ والحكمة والأناةِ إلا أنَّـــهُ كانَ عبارةً وافيةً جامعةً مانعةً لمن يطلبُ للتواضعِ توصيفاً وتعريفاً ، وهذا هو المُرتقى الصعبُ الذي لا يلقَّـــاهُ إلا ذو حظٍّ عظيمٍ أعني التواضعَ من أهـــل الرفعـــةِ والجاهِ كما روي عن عن عبد الملك بن مروان أنه قيل له من أفضل الناس ؟ قـــال : (مـــن تواضع عن رفعة) وكانَ رحمه الله قليلَ الكلامِ لكنِّـــهُ إذا تكلَّمَ وقرَ صوتهُ في قلوب السامعينَ قبل آذانهم وخشعتِ الأصواتُ هيبةً لحديثه ، يكرهُ اللجاج والمجادلة مع ما فطرهُ الله عليه من حدَّة الذكاءِ وقوَّة الحُجَّـــة وحضُور البديهة ، كانَ رحمة الله عليه قبلةً يؤُمُّـــها طلبـــةُ العلـــمِ والعُلماءُ وأساتذة الجامعاتِ والمفتونَ والقضاةُ والخطباء والدهماءُ والعامَّةُ ، يردونَ منهلهُ العذبَ الصافيَ ويصدرُ الواحدُ منهم وهُـــو رُواءٌ ، تولَّى القضاءَ والإفتاءَ ومناقشةَ الرسائلِ والإشرافَ

عليها وعضوية هيئة كبار العلماء وغير ذلك من موجبات الرفعة والتشريفِ، لكنَّ هذه الرتبَ الرفيعةَ لم تزدهُ إلا تبسطاً وخفضَ جناحٍ للمسلمينَ ، ولم تُنسِهِ أن لضعافِ المسلمينَ حقاً على العُلماءِ ، ففي جنَبَاتِ هذا المسجدِ وغيرهِ كانت ظهيرةُ كل خميسٍ شاهداً عدلاً عند الله على حرصِ الشيخِ على الجالياتِ إذ كان يجتمعُ إليه المسلمونَ النَّاطقونَ بغير العربيةِ ويَفِدونَ مع أزواجهم وذرياتهم يعلمهم أركانَ الإسلامِ وأصول العقائد ومعلومَ الدين بالضرورة ، ويجيبُ عن كل ما استغلقَ عليهم فهمهُ من تعاليم الإسلامِ ، فلمَّا قيلَ لهُ لو كفاكَ مهمَّةَ هؤلاءِ غيركَ قال رحمه الله إنِّي أخافُ أن يتلقَّفَ هؤلاءِ الإخوةَ بعضُ المتعالمين أو المبتدعة فيضلوهم عن سواء السبيل أو يُشغلوهم بأمور لا تنفعهم في دينهم وكأنِّك بأولئك وقد قشع الله عنهم بالشيخ غياهب الجهالة يندبونه بقول القائل: (يا منْ تواضعهُ عونٌ وسؤددهُ * نجدٌ وهمَّته التَّفريجُ للكربِ ، أوْصِ الزَّمانَ بحفظي من نوائبهِ * فإن أحداثهنَّ السودَ تلعبُ بي).

وكانَ رحمة الله عليه رغم إقامته الدائمةِ في هذا البلد رحَّالةً عبرَ الهاتفِ يسيرُ كما يسيرُ السحابُ المنبسطُ في السماءِ يصيبُ الله به من يشاءُ من عباده ، يدرِّسُ في المراكزِ الإسلاميةِ والمساجدِ في بلاد الغربِ ويُفتي السائلينَ ويهدي الحائرين، يتنقلُ بين البلدانِ الإسلاميةِ بل ويُدرسُ في المسجدِ الحرامِ وما والاهُ من المدنِ جنوباً ، ويبلغُ صوتُهُ ما لم يصلهُ بدنُهُ من بعضِ مُدُن المملكة التي كانت لهُ فيها دروسٌ ومشاركات ، كل ذلك من غيرِ دعايةٍ أو إعلانٍ ولا بهرجةٍ ولا اغترار ، وكانَ في مسيرةِ حياتهِ العلميَّةِ شديدَ الورَعِ والتخفِّي ، ذي همَّةٍ في البعد عن الأضواءِ كهمَّةِ المتعالمينَ الأغرار في أن تمتلئَ بهم شاشاتُ الإعلامِ ، ويوصي أقربيه ومريديه بتناسي كل ما لا تشتغلُ به الذمَّةُ في تربيةٍ منهُ على التخففِ من أحمالِ المظالمِ والمغارم ، يُسألُ عن حالهِ وهو كهلٌ ناهزَ التسعينَ بعد حادثٍ مروريٍّ أليمٍ في طريقه إلى أحد الدروس العلمية فيقولُ في رضاً عن الله إني لأخشى أن أكونَ مُستَدرجاً فأنا في نعمةٍ وعافية أسأل الله شكرها.

يا من أعجبكَ مسيرُ الشيخِ في حياته واستهواكَ ، إعلم أنَّ الشيخ رحمه الله كان عالي الهمَّةِ سريعَ اللحاقِ ودائم الرصدِ لمعالي الأمور بعيداً عن الأماني والتخيُّلاتِ (ذا همةٍ بلغت نحو السماءِ به * تبارك الله ماذا تبلغُ الهممُ) ، كان يعلمُ يقيناً بأنَّ (المرءَ مُرْهَنٌ بسوْفَ ولَيْتني **وهلاكُه في السَّوف واللَّيْت) وهاهي وفاةُ الشيخِ اليوم تعاظمت بها المسؤوليةُ على طلبة العلمِ ، فحفظاً للعلمِ حفظاً أيها الطلاب ، وحُثوا المطيَّ في السير إلى مراقي الفلاح حافظينَ للأمَّةِ دينها وإياكم والبهرجَ الإعلاميَّ الزائفَ واعلمو أنَّ العلمَ كما وصفهُ الله (آياتٌ بيناتٌ

في صدور الذين أوتوا العلمَ) وهذا يؤكِّـــدُ أنَّ الحفظَ والمُذاكرة والاستحضـــار آكدُ ســـبل التحصيل وأنفعُ طرقِ صيانة الدين ، وأمَّـــةُ الإسلامِ بحمدِ الله لا تخلو من الأخيـــار فلئن مات الشيخُ رحمه الله فذكرهُ خالدٌ باقٍ في أرجاءِ المساجدِ وبطونِ الكُتُب تتنزلُ به عليه الرحمات وهو في قبره ،فيا من يطلبُ عمراً إضافياً إلى عمرهِ عليك بالعلمِ النافعِ فما كُتب لغير العُلماءِ خلودٌ ، حفظَ الله أقوالهم وكتبَ آثارهم وتناقل الناسُ سيرهم وأشعارهم ، وتوارثوا سمتهم وأخلاقهم ، وليس ذلك لغير العلماء ، فأينَ التُّجَّـــارُ والأقويـــاءُ والمَـــصارعون والفرســـانُ والنُّـــدماءُ والمهرجون والمُغنُّـــون واللاعبون..؟ كل يموتُ ذكرهُ بموته ويبقى خلود الذكر الحسن للعلماء ، فيا من اتخذ أصفياءَ ورُفقاءَ يطربونه بزخرفِ القول غروراً في وجهه وأيامَ حياته ، يقبحون لهُ الحسن ويُغرونهُ بالشهوات ولا يخالفونَ هواه ، ولا يثنونه إذا تقحم نار الله على بصيرةٍ وهـــم شاهدون ، عمَّـــا قريبٍ ترحلُ وتموتُ وخيرُ أولئك المداهنينَ من يمسكُ لسانهُ عن الوقيعةِ في عرضكَ وهتكِ أستاركَ ، فاتخذِ الرفيقَ الصالحَ فإنهُ عونٌ على الدنيا والآخرةُ فـــالأخلاءُ يـــوم القيامةُ أعداءٌ لبعضهم إلا المتقون كما هو قول الله ، واسلك سبيل العلمِ وتأمَّل جموعَ المشيعينَ للشيخِ وألوفَ الباكين ، وقصائدَ الراثينَ ، ومشاعر المكلومينَ ، ثُمَّ سل نفسكَ بكم تُـــشرى هذه المشاهدُ والألسنُ والأيدي والأقدام.؟ بم تُستحقُّ هذه المنزلةُ التي يُخيَّل لرائيها أنَّ كل فردٍ من المكتظين يقول بحاله (لو كان فيهِ الموتُ يُقبلُ فديةً * كان الفِدى نفسي وما ملكت يـــدي) إنَّـــها ثروةٌ هائلةٌ لا ينالها غيرُ العلماء وليست لذواتهم ولا لأنسابهم ولا مجاملةً لعقبهم ، بـــل هي فضلٌ من عند الذي يختصُّ برحمته من يشاءُ ، فضلٌ يجريهِ الله على أكف وألسن وأقـــلام عبادهِ تأكيداً على شرفِ العلمِ ولما حُملوهُ من الهُدى والحكمة والنور المُبين.